قصة قصيرة

# رجال أمن

**تكوم يوسف افندي فوق الدرج واستسلم للبرودة تتسلل الى عظامه عبر فخذيه ٠٠ قال لنفسه ان الجلوس على الثلج اخف وطأة من الاستمرار في السير فوق الرصيف ذهابا وايابا والبندقية تحفر في كتفه خطا بلون الكلية ٠٠ والليل يبدو طويلا ومضجرا٠ ويزيده كآبة صوت طلقات نارية وقذائف هاون بين الفينة والاخرى قادمه من الشوارع الفرعية ٠٠ القى البندقية في حضنه واتكأ عليها بمرفقيه ٠٠ راقب ورقة تدور حول نفسها بين عجلات السيارات العسكرية المحطمة ثم تطير بسرعة باتجاه التمثال وحين صفعه الهواء واقشعر بدنه ادخل اصابعه تحت القبعة وهرش ما تبقى من شعر في رأسه ثم بصق لاعنا كل شيء ٠**

فكر ٠٠ قال ان الضباط ينامون فوق على اسرتهم الوثيرة وان عليه هو ان يمضي الساعات الاربع يقرع بحذائه الثقيل بلاط الرصيف ويغالب في آن الاجهاد والنعاس والضجر ٠ وامام عينيه انتشر نفر قليل من شرطيين مرهقي الاجساد ٠ والساحة تصغر رقعتها مع اشتداد الظلمة ٠ وتحت مصباح هزيل يعبر سكير متسكع ، ترتعش خطواته وهي تقتنص فرصة للنجاة من حيز الصدفة او غفلة عين من قناص في زاوية ما ٠٠ على سطح ما ٠٠ وفي ذهن يوسف افندي تختلط المفاهيم كما تختلط المرئيات في عينيه ٠ يبحث جاهدا عن تحديد لمعنى الموت والليل والعبور ٠٠ يسقط في قبضة الارهاق وفي مجلسه البارد خلف المتراس الرملي ٠

وتمضي ساعة وهو هناك يلقي من خلال الفرجة بين اكياس المتراس نظراته الكليلة ٠٠ ترتخي قبضته على البندقية الملقاة باهمال على ركبتيه ويروح يحلم بالخبز والمنزل والاولاد ٠٠ والحلم وسيلته الوحيدة للاتصال بهم هناك في زاروب الطمليس ٠ وفي داخله يكبت الشبق والحنين ٠ وتسقط قذيفة ٠٠ اثنتان ٠٠ ويوسف افندي اعتاد الصوت المنفجر في الخارج وفي داخله ٠٠ اعتاد سقوط القذائف بعيدا او قريبا منه ٠ وهو لايستبعد ان تقتله احداها في يوم ما ٠٠ في لحظة ما ٠٠ امر واحد يرجف اوصاله كلما فكر فيه : رصاصة تأتيه من داخل المخفر ٠

والساحة تمتد امامه واسعة وغامضة ٠٠ النخلات المصطفة كجنود التشريفات بعضها سقط بفعل القذائف وبعضها اسقطته مؤخرا الملالة ايام الجوع ٠٠٠ تـ تـ تـ تـ ٠٠ تك ٠ وتسقط كقتيل مجهول الهوية ٠٠ يتسابقون في جمع البلح الناضج ٠٠ تستنكر انت : كان ينبغي هزها فقط ٠ ولكنك تندفع بفعل الجوع تجمع الثمرات المحطمة تحت اقدام الجنود والشرطيين ٠٠ تغسلها وينابك الشعور بالرضى ٠٠ تتساءل بطريقة احصائية : كم ستكفينا هذه البلحات ؟٠ ويصدمك مرأى الصينية يصعد بها شرطي الى مكاتب الضباط حافلة بالصحون وطعام ملفوف بالورق الفضي ٠

ولا شيء يبشر بالامل ٠٠ يصعد الشرطيون واحدا تلو الاخر الى مبنى السرية ولا يبقى غير الساحة الخاوية الرهيبة وحطام السيارات وزجاج الابنية ٠٠ وانت ٠٠ والتمثال ما يزال يقف وقفته الابدية بملامحه الغريبة وازيز الرصاص لا يتوقف٠ ويوسف افندي اضافت الى ثقافته اسماء اسلحة جديدة ٠ ينظر الى قاعدة التمثال فلا يجد احدا من الاطفال المشردين ٠ جميعهم قتلوا وهو حمل جثثهم وذيل المحضر بتوقيعه ، شاهدا رغما عنه انهم قتلوا برصاص مجهولين ٠

يوسف افندي ٠ سيحاسبك الله « يوم تشهد عليهم ايديهم وارجلهم » ٠٠ ولكن ماذا لو ؟٠ يقنع نفسه ان لا جدوى من الادلاء بشهادة صادقة ٠ سوف يأتون اليك من خلف مبنى الشرطة٠ يقتادونك وفوهة بندقية تنغرز في خاصرتك ، تدفعك الى الامام وسط رعب الزملاء واستنكار الضابط الذي لا يفعل غير ان يجري اتصالات هاتفية ٠٠ وتئز رصاصة داخل المحلات العمومية تفصلك الى الابد عن عالم زملائك الذين يتجرعون الرعب كل لحظة ٠

ويعود يفكر في الزوجة والاولاد وحظهم الاوفر هناك في الزاروب ٠ يفكر بوجوه الزملاء الكالحة رعبا وندما ٠٠ يتهامسون كالمعتاد حول الاوامر التي ينبغي تنفيذها رغما عنهم ، وحول خطب الضباط المنمقة عن الانضباط وارتفاع العسكر عن الغايات ٠

خمس عشرة سنة وانت تصغي الى الخطب المنمقة دون رد فعل ٠٠ ماذا فعلت بنفسك يا يوسف افندي ٠٠ منذ خمس عشرة سنة لم تكن تدري ان ذلك سيحدث ٠٠ وقفت مشدودا امام « البيك » تحاول كتم انفاسك وصوت لهاثك مسموع ورهيب ٠ والوالد يتكلم وذراعاه ترسمان الكثير من الحركات على نحو لم تألفه :

ـ ابني يا بيك ٠٠ ابني سيدخل الدرك ٠٠ ابني امانة برقبتك !٠

وتمضي الايام مشحونة بالترقب والخوف من السقوط ٠٠ وفي يوم يفجأك دركي بخبر قبولك ٠ وتنقطع خمس عشرة سنة عن القرية ٠٠ تزورها في فترات متباعدة وتسقط في الوحل حتى اذنيك ٠٠ يوسف افندي ٠٠ يا للسخف ٠ واللقب الجديد يلتصق بك بلزوجة السمك الكريه ٠ يوسف افندي المشدود داخل البزة والحذاء العسكريين ٠ وداخل شخصيتك العسكرية تكاد تنسى ذاتك البشرية٠٠ يرتفع الدم ساخنا الى اذنيك وانت تصافح صديقا قديما ٠٠ تفتقد عبارات السلام التقليدية وتخونك الجرأة على الثبات فتمضي ٠٠ تتجرع الخيبة كل يوم ٠

ولا شيء الان يبشر بالامل ٠٠ تفكر بالهرب ٠٠ وتدري ان الاخرين يفكرون مثلك بالهرب٠٠ ولكنكم جبناء ٠ تدركون ان ثمة من يستغل خوفكم وحرصكم على الراتب ٠ فيزداد الكبت رهيبا في صدوركم ، والحقد يتحين الفرصة للتعبير عن ذاته ٠٠ ولكن الضباط والقناص لا يتركون لك الفرصة للتفكير بذلك ٠٠ رصاصة الى يمينك واخرى الى يسارك وانت تدري ان باستطاعته اصابتك وانت قادم من جهة الاسواق ، وانه انما يقنعك بعدم جدوى الحقد ما دمت في مرمى بندقيته ٠

★ ★ ★

يمضي ليلته على المقعد المعدني الطويل ٠٠ ويستيقظ على الخبر المدوي كحزمة من ديناميت ( العريف حسين قتل على حاجز الارز ٠٠ قتل على الهوية فيما نجا زميل له كان يرافقه ليأتيا بالطعام للضباط ٠٠ )

تكوم يوسف افندي على « البنك الحديدي » وندت عنه « آخ » مشحونة بالقهر والالم والحقد ٠٠ تعلقت عيناه بالدرج الصاعد الى الطابق العلوي والعريف حسين يحمل الصينية على كفه بتوازن عجيب يذكر بعمال المطاعم وساقاه تقفزان فوق الدرج تكاد عضلاتهما تمزق سروال شرطي السير المنفوخ في اعلاه والهامة ترتفع مصعدة كعملاق الاساطير والوجه الطافح بشرا ووداعة ٠٠ كل ذلك انتهى عند الحاجز وعلى الهوية ٠ وسيكلف يوسف افندي بالانتقال لوصف وضعية الجثة : الرأس باتجاه الجنوب الساقان باتجاه الشمال ورصاصة في الرأس ٠٠ في العنق ٠٠ في القلب ٠٠ في ٠٠ آخ ٠٠ وينتفض يوسف افندي باكيا كطفل ٠٠ يتحلقون من حوله « على الهوية » ٠٠ يرتسم الحقد في الوجوه والاخ المقهورة تسود وسط صمت الموت والترقب والذكريات ٠ وفي الطابق العلوي يفكر ضابط بمقدمة ادبية فذة لمحضر تحقيق حول الحادث ٠٠

ينتفض يوسف افندي كالملدوغ ٠٠ يصرخ باكيا :

ـ كان اجمل من الارزة والله والوطن والعائلة ٠٠ كان ٠٠

يمسكونه ٠٠ يد على حزامه الجلدي العريض ٠٠ ويد على فمه ٠٠ يدفعونه ٠٠ تمتد يد لتفرغ مسدسه من القذائف وهو ينتفض ٠ يغالب اليد القابضة على شفتيه ٠٠ كان اجمل ٠ كان ٠٠ يتراكض الضباط ٠٠ يشتمهم وينسل مسرعا الى الشارع ٠٠ يتبعونه اربعة شرطيين ٠٠ خمسة ٠ يقفون على الرصيف ٠ ويئز الرصاص في الساحة ثم يصمت ٠ يلتفت يوسف افندي خلفه ٠٠ يبصق على المبنى القديم ويندفع معهم يجتازون الساحة ويغيبون في الاسواق الداخلية ٠

★ ★ ★

حين وصل الى شارع المعرض شعر برغبته في الجلوس على مدخل الفرن ٠ ولكنه تحامل على نفسه رغم اعيائه الشديد ٠٠ كان عليه ان يعبر

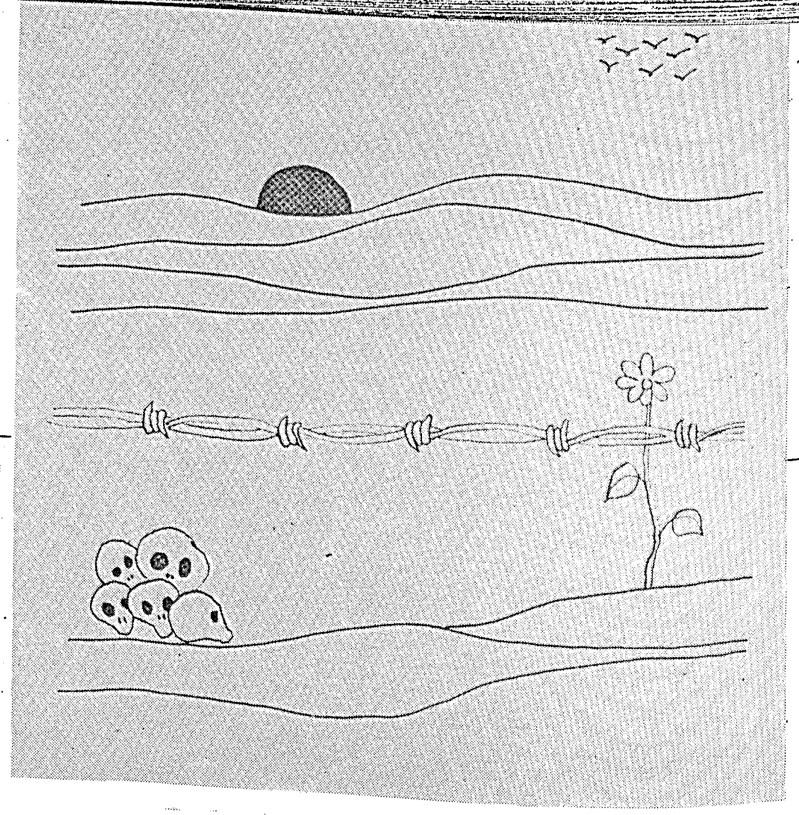

المسافة بين اول الشارع وسينما التياترو الكبير بسرعة الرصاص الذي سينهمر عليه من متراس الامبير ٠ وان يوحي في آن انه لا يشكل خطرا على مسلحي ساحة رياض الصلح ٠٠ تلفت حوله واطمأن الى ان زملاءه انتشروا ثم غابوا في الشوارع القريبة ٠٠ شد القبعة على رأسه وتأكد من وجود مسدسه ثم اندفع خلال الساحة الرهيبة في مدى الرؤية لدى مسلحي متراس الامبير ٠٠ انزلق على شظايا زجاج محطم فوق رصيف التياترو الكبير وسقط بعنف على الارض ٠٠ انهمر الرصاص وتساقطت فوقه شظايا العمود الحجري ٠٠ دفع بجسده بعنف والتصق بالجدار يكاد يصرخ ٠٠ كان عليه ان يقف وان يسير موحيا لمسلحي المتراس القريب انه لا يشكل ادنى خطر عليهم ٠ وحين تخطاهم داهمه الشعور بان رصاصة ستستقر في رأسه وان المسافة بين ساحة رياض الصلح ومنزله ابعد من ان يتصورها انسان ٠٠ وان واحد من شهداء ٢٣ نيسان يحمل بندقية في زاوية ما ويوجهها اليه ٠

ولكنه وصل اخيرا وطرق الباب ٠٠ وامتد دهر ثقيل قبل ان تفتح زوجه والطفل على ذراعها ٠ دخل بارهاق ظاهر ٠٠ القى بقبعته على الطاولة وراح يفك حزام المسدس وامرأته تقف صامتة كشأنها كل يوم ٠٠ رفع حزام المسدس والقاه باهمال على السرير وزفر ٠ فاطرقت المرأة برأسها حابسة انفاسها ٠٠ جلس وجدف بحنق فأتاه صوتها وكأنها تبكي :

ـ خير ؟!

ـ من أين يأتي الخير ؟٠

وصمتا معا ٠٠ وجاراهما الطفل كما يبدو ٠٠ وحين انحنى ليفك شريط الحذاء الطويل تحركت المرأة لتأتيه بالماء ٠٠ ولما عادت كان ما يزال يفك الشريط باعياء ٠٠ ادنت طمست الماء من قدميه فالقى بالحذاء بعيدا وجدف ٠ ثم لعن اناسا كثيرين وبدا الامر مألوفا بالنسبة للمرأة فانحنت تساعده ٠ فيما راح يفك ازرار سترته ٠٠ نظر اليها مكتومة امامه والبخار يتسرب من شعرها المتهدل فوق الطست فاشفق عليها ٠٠ قال ان الحياة لا تطاق وانه ضجر من كل شيء ٠٠ من الوظيفة والقتل ومن الخدعة الكبرى « يوسف افندي » اسمه اللاصق به بلزوجة السمك الكريه ٠

رفعت المرأة وجهها وكررت :

ـ خير ؟!

كان قد هدأ قليلا وقد تخلص من سترته :

ـ لا خير : ٠٠ قتلوا العريف حسين ٠

صرخت المرأة وبكت وكأنها تعرف العريف ٠٠ ذهبت بالطست وظل هو جامدا بانتظار ان تعود ٠ وحين عادت قال بلا اقتناع :

ـ لولاك ٠٠ لولاك انت لما كنت هكذا : يوسف افندي ٠٠ يا للسخف ٠٠ افندي براتب خادم تجر كلب امرأة في الحمراء ٠

كاد ان يسترسل في الحديث ٠٠ ان يفرغ شحنات الغضب في وجه المسكينة ٠ لكنه صمت ٠٠ تذكر انه كان يأتي في كل مرة ليفرغ عن كربه بالزعيق في وجهها ووجه الاولاد وان خمس عشرة سنة اضاعها هباء في خدمة اسياده ٠

اقحمته المرأة في حديث عن المستقبل والراتب والاولاد فكاد ينهار ٠٠ ارتسمت في رأسه الف « لماذا » راحت تختلط بصور شتى : العريف حسين ٠٠ تظاهرات وجموع غاضبة ٠٠ رصاص ينهمر وفتيان يسقطون قرب البربير وحواجز مسلحين : « قف يا ابن العاهرة ٠ انت منهم » ٠٠ نجوم معدنية تلتمع على الاكتاف وفي الوجوه يسكن الاحتقار ٠٠ ضابط يصرخ كخطيب فذ ٠٠ وتشعر انك الة حتى العظم وان داء المفاصل يسكنك الى الابد ٠٠

يوازن بين الماضي والمستقبل ويروح يفكر في انه قد يقوم بعمل نافع لاول مرة ٠

٢ شباط ١٩٧٦/شحيم ٠٠

ربيع ديب ■■